الفصل الثاني

سياسة الرشيد مع الإمبراطورية الرومانية

- **أولًا: شارلمان.. إمبراطور الفرنجة (فرنسا).**
- **ثانيًا: هارون الرشيد وشارلمان إمبراطور الكارولينجيين.**

obeikandl.com

وعلى عَدُوِّك يا ابنَ عَمِّ محمدٍ رَصَدانِ ضَوْءُ الصبحِ والإظْلامُ

فـــإذا تنبَّـــه رُعْتَه وإذا غَفَا سَلَّتْ عليه سيوفَــك الأحْـلامُ

أشجع السلمي يمدح الرشيد.

ابن عساكر: تاريخ دمشق، (9/ 107 – 108)

obeikandl.com

لا تكاد تذكر المصادر العربية شيئًا عن علاقة هـارون الرشيد بملك الفرنجة شارلمان، أو شيئًا عن المراسلات والهدايا المتبادلة بينهما، على عكس التفصيلات التي أبرزتها عن علاقته بالإمبراطورية البيزنطية. غير أن المصادر اللاتينية انفردت بإبراز تلك العلاقة بين الرشيد وشارلمان وحمَّلتها الكثير من التفصيلات والنتائج، وقد أدى هـذا الانفراد- فضلًا عن اضطرابها وغموضها - إلى اختلاف كبير بين المؤرخين المحدثين بشأن صحتها، أو تفسير نتائجها.

وقبل أن نخوض في صحة هـذه العلاقة من عدمها، يجب علينا أن نتساءل أولًا: من هـو شارلمان؟ وما تاريخه بالنسبة للإسلام؟، وذلك لتتضح الصورة للقارئ الكريم، وليعرف: عمَّن نتحدث؟ وهل يعقل أن تتم علاقة بين خليفة مسلم بأخلاق الرشيد وجهاده مع مثل هـذا الإمبراطور؟!!

obeikandl.com

أولًا: شارلمان.. إمبراطور الفرنجة (فرنسا)

شارلمان أو ما تسميه المصادر العربية (قارلة) هـو ملك الفرنجة (151هـ - 184هـ / 768م - 800م) وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة (184هـ - 199هـ / 800م - 814م)، من أعظم شخصيات الأسرة الكارولينجية arlovingians أو Carolingians التي حكمت مملكة الفرنجة. ورث شارلمان حقده للإسلام والمسلمين من جده شارل مارتل، الذي أوقف المد الإسلامي بهزيمة المسلمين في معركة بلاط الشهداء - بواتييه، واستشهد فيها المجاهد المسلم التابعي الجليل عبد الرحمن الغافقي في رمضان 114هـ/ أكتوبر 732م.

لذا كان شارلمان عدو الإسلام الأول في الأندلس، وكان يحاول دائمًا الاستفادة من الاضطرابات الداخلية التي تحدث في الأندلس، ويشجع روح التمرد والخلاف على الأمراء الأمويين، وقد اعتمد في حروبه على الأندلس بجانب أطماعه التوسعية والسياسية إلى إثارة النزعة الدينية، فكان أول من نادى بالحرب الصليبية سواء كان في غزوه للأندلس أو حروبه في أوروبا.

كانت أشهر حملات شارلمان على الأندلس، تلك الحملات الدامية على الثغر الشمالي وخاصة ولايتي برشلونة وسرقسطة، ففي عام 157هـ أعلن سليمان بن يقظان الكلبي الأعرابي والي برشلونة والحسين بن يحيى الأنصاري والي سرقسطة تمردهما ضد الأمير عبد الرحمن الداخل، وهزما جيش الداخل سنة 158هـ/ 775م، تقول الرواية العربية إن سليمان بن يقظان قرر الاستعانة بشارلمان، وأرسل إليه في ربيع سنة 160هـ/ 777م بخطة مع ثقاته، مقابل تسليمه

برشلونة أو سرقسطة في شمالي الأندلس.

قام شارلمان بالتوجه إلى الأندلس في سنة 162هـ/ 778 م وذلك تنفيذًا للاتفاق الذي بينه وبين المتآمرين. فاتجه نحو جبال البرتات وعبرها، ثم هاجم بنبلونة عاصمة الباسك واستولى عليها. غير أن خيوط المؤامرة لم تحكم جيدًا؛ حيث انسحب الحسين بن يحيى الأنصاري وأغلق أبواب سرقسطة في وجه شارلمان، في المقابل تلقى شارلمان أنباء تفيد بحدوث اضطرابات في بلاده، فاضطر إلى رفع الحصار عن سرقسطة، ورجع إلى بلاده بعد أن أخذ سليمان الأعرابي معه أسيرًا، ودمر في طريقه مدينة بنبلونة. وبينما كان شارلمان يعبر مع جنوده من ممر رنسفالة أو باب شزروا، كما يسميها العرب، في جبال البرتات، هاجمته قوات المسلمين بمعاونة البشكنس، وقضت على مؤخرة جيشه، وقتل عدة قواد من أشهرهم رولان Roland، بطل ملحمة رولان الشهيرة.

وبعدما فشل شارلمان في حملته على مسلمي الأندلس أرسل من عنده وفدًا إلى قرطبة يحمل رسالة للأمير عبد الرحمن الداخل يدعوه فيها إلى المصاهرة والسلم، فأجابه الداخل إلى السلم ولم تتم المصاهرة، وفي هذه المناسبة جرى توقيع هدنة بين الطرفين سنة (164هـ / 780م) تقريبًا. على أن سياسة شارلمان لبثت – بالرغم من هذه الصدمة المؤلمة في جبال البرتات – ترقب سير الحوادث في الأندلس لتجد فيها ثغرة تتخذها وسيلة لتحقيق غاياتها، وكان الفرنج ينظرون بعين التوجس، وكان شارلمان يلتمس الفرصة كلما اضطرمت الأندلس بالثورة.

وقد وقع غزو شارلمان للمرة الثانية لشمال الأندلس في عهد الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل (180هـ/ 796 – 206هـ/ 822م) بين سنتي 181هـ و185هـ، أي في أواسط عهد الرشيد (170هـ – 193هـ)، حيث عاد الاضطراب إلى الثغر الأعلى، وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورات الداخلية المتوالية، فألفى الفرنج الفرصة سانحة لدفع غزواتهم نحو الجنوب، وكان شارلمان يطمح بالأخص

إلى افتتاح ثغر برشلونة المنيع ليكون معقلًا لحماية أملاكه الجنوبية، وعقد محالفة بينه وبين أمير جليقية ألفونسو الثاني سنة 798م، لكي يكتسب ولاء البشكنس ومعاونتهم.

وفي سنة 185هـ/ 801م سير شارلمان إلى الأندلس جيشًا ضخمًا لافتتاح برشلونة بقيادة ولده لويس أمير أكوتين، ولم تستطع برشلونة ثباتًا بعد أن هلك ألوف من أهلها، وفتحت ثغرات عديدة في أسوارها، فاضطرت إلى التسليم بعد أن ذاقت ويلات الحصار سبعة أشهر. وجعل شارلمان برشلونة قاعدة الثغر القوطي أو الثغر الإسباني، الذي أنشأه فيما وراء البرنيه، حماية لحدود فرنسا الجنوبية، وخسر الإسلام بفقد برشلونة أمنع ثغوره في قاصية الأندلس، وارتدت حدود الأندلس إلى الثغر الأعلى، بعد أن كانت تجاوز جبال البرينيه، ولم تمض بضعة أعوام أخرى، حتى عبرت جيوش شارلمان البرينيه للمرة الثانية (193هـ/ 809م) وحاولوا الاستيلاء على مدينة طرطوشة، ولكن المسلمين استطاعوا إنقاذها[1].

لم نقصد من سرد تلك الوقائع التاريخية سوى أن نبيَّن للقاري من هو شارلمان، وما هي مكانته عند الأوروبيين، ليتضح لنا من تلك الروايات هالة الصورة التي يرسمونها له، في مقابل الخليفة المسلم الذي يخضع لشروطه التي يمليها عليه.

فما هي إذًا طبيعة العلاقة بين هارون الرشيد وشارلمان؟

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 191، 235 – 236. ول ديورانت: قصة الحضارة، 14/ 230 – 231. محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، 1/ 168 – 185، 233 – 238. سالم عبد الله الخلف: نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، 1/ 237 – 239. بتصرف.

ثانيًا: هارون الرشيد
وشارلمان إمبراطور الكارولينجيين

أغفلت المصادر العربية الحديث عن العلاقة بين هـارون الرشيد وبين شارلمان إمبراطور الفرنجة، وأما المصادر اللاتينية التي ذكرت تفاصيل تلك العلاقة، فهي ثلاثة: حياة شارلمان لإينهارد، والأخبار الملكية الفرنجية، ورواية الراهب سانت كول.

والملاحظ في هـذه الكتابات أن روايات إينهارد تميل إلى تفخيم سيده، بينما رواية سانت كول التي كتبها بعد وفاة شارلمان بنحو خمسين سنة تميل إلى الأسطورية، بينما الأخبار الملكية فهي مقتضبة لا تعين على تحديد طبيعة هـذه الصلات[1].

تذكر المصادر اللاتينية أن شارلمان أرسل وفدين إلى الرشيد، الأول سنة 184هـ/ 797م، والثاني سنة 187هـ/ 802م، ورسولًا إلى بطريق القدس سنة 184هـ/ 799م. فأجاب الرشيد بإرسال وفدين، الأول سنة 186هـ/ 801م، والثاني سنة 1919هـ/ 807م، بينما أرسل بطارقة القدس أربع سفارات على الأقل إلى شارلمان، سنة 799م، 800م، 803م، وسنة 807م. ويبدو من المصادر الغربية أن زمام المبادرة بين الطرفين كانت من قبل شارلمان.

السفارة الأولى عام 184هـ/ 797م

ففي عام 184هـ/ 797م أوفد شارلمان وفدًا من ثلاثة: لانتفريد وسيجموند ويهودي اسمه إسحاق مترجمًا، وقضى الوفد في مهمته ثلاث سنوات، توفي أثناءها الممثلان الأولان بعد أن أنجزا مهمتهما، بدليل أن الرشيد رد على هـذه السفارة

(1) عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول، ص117. السيد عبد العزيز سالم: العصر العباسي الأول، هامش (1) ص240.

بسفارة إسلامية تتألف من مبعوثين أحدهما فارسي عن الخليفة، والآخر من إفريقية ممثلًا عن الأغالبة، وصلا في سنة 187هـ/ 802م، ولحق بهما إسحاق اليهودي، الذي حمل لشارلمان فيلًا اسمه (أبو العباس) أهداه الرشيد إليه.

السفارة الثانية 187هـ/ 802م

أما السفارة الثانية، فقد أرسل شارلمان وفده الثاني إلى الخليفة هـارون سنة 187هـ/ 802م، وتشير الأخبار الملكية إلى هـذا الوفد دون بيان مهمته، بينما إينهارد في كتابه يذكر أن سفراء شارلمان أخذوا هـبات لكنيسة القيامة، ثم ذهبوا بها إلى الرشيد، فأجاب لهم عن رغبات سيدهم، وأوكل لشارلمان أمر الأماكن المقدسة. غير أن (هـلفن) محقق كتاب إينهارد يرى أنه لا يمكن الوثوق بمعلومات ذلك المؤرخ، الذي كان هـمه تفخيم سيده.

وقد رد الرشيد على هـذه السفارة بسفارة إسلامية وصلت إلى بلاط شارلمان 807م، ويمثلها رسولًا من الخليفة اسمه عبد الله، كان يحمل معه هـدايا نفيسة لشارلمان، عبارة عن صوان ملون بألوان متعددة، وأقمشة حريرية، وعطور وبلسم، وساعة مائية عجيبة، وأوانٍ نحاسية. وقد وعد هـارون الرشيد أن يجعل تحت شارلمان بيت المقدس والضريح المقدس[1].

العوامل التي أدت إلى هـذه العلاقة .. الشبهات والردود

أخذ المؤرخون الغربيون ما جاء في تلك المصادر اللاتينية فشرحوها وأولوها وحملوها أكثر مما تحتمل، متحيزين في ذلك لأوروبا الغربية، على حساب التاريخ الإسلامي وحضارته العريقة. متناسين أن الشرق الإسلامي كان يعيش أزهى عصوره في الرقي والثقافة في الوقت الذي كانت تعيش فيه أوروبا كلها ظلمات العصور الوسطى. هـذا فضلًا عن أن تلك المصادر اللاتينية يشوبها الغموض والاضطراب.

(1) عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول، ص117. السيد عبد العزيز سالم: العصر العباسي الأول، ص240 - 241.

ذهب كثير من المؤرخين إلى أن العوامل التي أدت إلى هـذه العلاقة الوطيدة، أن شارلمان أراد من وراء هـذا التحالف أن يضعف من نفوذ إمبراطور الدولة البيزنطية، بينما استغل الرشيد هـذا الحلف ضد أعدائه البيزنطيين والأمويين في الأندلس على السواء، وأن شارلمان أراد تسهيلًا لمجيء الحجاج الأوروبيين إلى الأماكن المقدسة، مما دعا بطريق القدس بموافقة الرشيد إلى إرسال وفد سنة 185هـ/ 800م يحمل مفاتيح كنيسة القيامة ومدينة القدس ورايتها إلى شارلمان، وبذلك أصبح شارلمان حامي الأماكن المقدسة في فلسطين، كل ذلك - حسب زعمهم - مقابل موافقته على محاربة أمويي الأندلس باسم العباسيين، والوقوف في صف العباسيين ضد البيزنطيين [1].

نقد الروايات اللاتينية بخصوص العلاقة بين الرشيد وشارلمان

وكما أن المؤرخين الغربيين أنفسهم اختلفوا فيما بينهم حول طبيعة هـذه العلاقة وأهدافها، فمنهم من أنكر تلك الصلات جملة واحدة، مثل المؤرخ الروسي بارتولد V.V. Bartold، في مقالة له سنة 1912م، أنكر فيها أية صلات بين الرشيد وشارلمان، ويمكن لنا أن نجمل مآخذنا على هـذه الروايات اللاتينية في النقاط التالية:

1 - سكوت المصادر العربية عن ذكر مثل هـذه العلاقات يعني نفيًا قاطعًا لقيامها.

2 - أن العلاقات بين شارلمان والبيزنطيين كانت إبان السفارة الأولى 797م حسنة، ففي سنة 798م أرسلت إيريني وفدًا إلى شارلمان للمفاوضة في عقد حلف، واقترحت عليه الزواج.

3 - لا يعقل أن يكون الرشيد أرسل الفيل مع إسحاق اليهودي، بينما أرسل سفراءه قبله دون أن يحملوا معهم أي هـدية، ولهذا يرجح أن إسحاق المذكور لم يكن مترجمًا وإنما كان تاجرًا.

(1) أمينة البيطار: تاريخ العصر العباسي، ص219.

4 – أن الرشيد لم يعط شارلمان حق الحماية على فلسطين، ولو كان ذلك حدث فعلًا لذكرته المصادر العربية والبيزنطية.

5 – لم تكن هـناك وفود رسمية بين الطرفين، بل زيارات من قبل تجار من اليهود الفرنجة، وأن إعطاء هـذا الحق من قبل الرشيد لشارلمان لا ينسجم مع سياسة هـارون الرشيد وروح العصر الذي عاش فيه.

6 – ويرجع بعض المؤرخين الأوروبيين أمثال بارتولد وبروكلمان أن بعض التجار العراقيين الذين ذهبوا إلى مدينة اكس لاشابل (آخن) قاعدة شارلمان انتحلوا صفة السفراء الناطقين باسم الرشيد لدى شارلمان من غير تفويض، ولهذا لم يرد ذكرهم في المراجع العربية، على أنه يلاحظ أن ما نسميه اليوم بالسلك الدبلوماسي، لم يكن معروفًا في العصور الوسطى سواء في الشرق أو الغرب، وكان اعتماد الجانبين في أداء هـذه المهام الدبلوماسية على العلماء والفقهاء في أغلب الأحيان.

7 – وإذا سلمنا بصحة تلك العلاقة بين هـارون الرشيد وشارلمان كما وردت في المصادر اللاتينية، فإننا نذهب إلى أن شارلمان أراد أن يوثق صلاته بهارون الرشيد ليكسب وده، ويحول بينه وبين أبناء عمومته من الأمويين من التآلف والتكاتف ضده، وليتفوق بشهرته وسطوته على ما لنقفور ملك القسطنطينية من شهرة وسطوة عند الغربيين، وأن يكون له اليد البيضاء عند النصارى بمصافاة الرشيد وصداقته؛ ليضمن وصول الحجاج النصارى إلى بيت المقدس بأمان، وأن يظهر بالحامي المدافع عن حقوق النصارى في العالم، كما أراد أن يستفيد من التألق العلمي والحضاري عند العرب في ذلك الوقت.

8 – أما عن رد الرشيد على شارلمان– لو سلمنا بصحة تلك العلاقة، فإن الرشيد أراد إضعاف نقفور الخصم اللدود للخلافة العباسية، وليقطع الطريق للتحالف بين المملكتين البيزنطية والرومانية المقدسة آنذاك، فيكون قد حقق ما

يريده من هـذه الصلة [1].

9 – وأما بخصوص ما يتعلق بحقوق المسيحيين في الشرق، فهل كانت الأقلية المسيحية في بلاد المسلمين تتعرض للاضطهاد والعنف في خلافة الرشيد، لدرجة أن يتدخل إمبراطور الفرنجة لحمايتهم ورعايتهم؟!! إن ذلك كله من الأكاذيب التي اخترعتها تلك الروايات اللاتينية، فقد كان النصارى في بلاد مصر يؤدون الجزية لهارون الرشيد دينارًا واحدًا ميمونيًا (ذكر الأصفهاني في الأغاني أنها سميت بالميمونية نسبة إلى ميمون بن عامر)، بعد أن ضربها عليهم عمرو بن العاص دينارين، بل تغاضى ولاة المسلمين للمسيحيين عن أفعال لو فعلوها في العراق أو بلاد الحرمين لجلبت عليهم الحيْن في طرفة عين، كتطاولهم في البنيان على بنيان المسلمين، ومجاهرتهم بالإنجيل وإخراج آنيتهم إلى الأسواق وحمل صلبانهم على رؤوس الرماح، وغير ذلك مما لا ينقمه منهم المسلمون؛ طمعًا في استمرار الخلطة التي وقعت بينهم، وأشبهت أن تكون ألفة وصفاء، بل مودة وإخاء[2]. وأما بخصوص أمر الرشيد بهدم الكنائس بالثغور سنة 191هـ/ 807م، وإلزام أهل الذمة ببغداد وغيرها من بلاد المسلمين بمخالفة هـيئتهم هـيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم، فقد أفتاه بذلك علماء المسلمين، كما صرح ابن القيم[3]، إعزازًا للدين ورفعة له، هـذا غير المعاملة الحسنة والإحسان إليهم والبر بهم.

10 – كما أن العلاقة بين الرشيد والأمويين في الأندلس لم تكن سيئة جدًا، لدرجة أن يتحالف الرشيد مع الفرنجة ضدهم، وإنما كانت العلاقة بينهما هـي القطيعة، ولم تحدثنا المصادر العربية عن أي تحرك اتخذه الرشيد تجاه الأندلس،

(1) السيد عبد العزيز سالم: العصر العباسي الأول، ص241 – 242. أمينة البيطار: تاريخ العصر العباسي، ص219 – 220. أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي، ص90. أحمد القطان ومحمد طاهر الزين: هارون الرشيد الخليفة المظلوم، ص123 – 124. بتصرف.

(2) جميل نخلة المدور: حضارة الإسلام في دار السلام، ص246 – 248. بتصرف.

(3) ابن القيم: أحكام أهل الذمة، 1/ 464 – 465.

لانشغاله بالثورات الداخلية وغزواته ضد البيزنطيين.

11 – من يقرأ التاريخ يعرف أن الرشيد تخلى عن سلطته الحقيقة في تونس تحت سلطان الأغالبة؛ لانشغاله بحرب البيزنطيين، وهجوم الخزر، ومشكلات المشرق، فكيف يفكر في قتال الأندلس؟!!

12 – ليس من أخلاق الرشيد الذي تربى على الجهاد وحب الدين، وما عرف عنه من تقريب العلماء والفقهاء، ومواقفه في الزهد والبكاء من الله تعالى، أن يتعاون مع الكافرين ضد إخوانه من المسلمين، ولو كان ذلك لتردد في المصادر العربية في بلاد المشرق والمغرب أنباء ذلك، وهو ما لم يحدث.

obeikandl.com